HexaTimes
Delaware, United States
HexaJournal
of Arabic Language Sciences
هكسا جورنال
علوم اللغة العربية

البعد الرمزي في مخيال الشعراء الصعاليك: المرأة نموذجا

د. عاصم زاهي مفلح العطروز

أستاذ الأدب والنقد العربي المشارك في الجامعة الإسلامية بمنيسوتا – امريكا

dr.asem12@gmail.com

الملخص

موضوع هذه الدراسة هو (البعد الرمزي في مخيال الشعراء الصعاليك، المرأة نموذجا). ولقد جاءت هذه الدراسة في مبحثين، مع مقدمة وخاتمة.فأما المقدمة، فكانت مدخلاً للدراسة، وإضاءة للعمل فيها. وأما المبحث الأول، فكان عنوانه: المرأة في سياق حركة الشعر العربي القديم. وقد خصصته للحديث عن ما حظيت به المرأة في الشعر العربي القديم -على وجه الخصوص- من مكانة رفيعة سامية. كما توقفت فيه عند دلالات توظيف الشعراء الجاهليين لأسماء النساء، وما ترمز إليه هذه الأسماء. ثم شرعت بدراسة أنماط وصور المرأة في شعر العربي القديم. وأما المبحث الثاني، فقد خصصته لدراسة صورة المرأة في مخيال الشعراء الصعاليك، وقد رأيت أن أقتصر الدراسة على أشهر من عُرف من الصعاليك؛ وذلك لأن عدد الصعاليك في العصر الجاهلي أكثر من أن يحصو؛ فوقفت في الدراسة عند أربعة منهم، وهم: عروة بن الورد، وتأبط شراً، والشنفرى الأزدي، والسليك بن السُلكة. ثم شرعت بدراسة صورة المرأة في شعر كل واحد منهم على حدة؛ نظراً لأن لكل واحد منهم من ظروف اجتماعية، وأحوال نفسية تختلف من الآخرين. وأما الخاتمة، فقد ذكرتُ فيها أبرز النتائج التي خلصت إليها في هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: الأسلوبية، النصيّة، الصعاليك، الرمزية، الخطاب، النسيبية

Abstract

The subject of this study is (women in the imagination of poets poets). This study came in three sections, with an introduction and a conclusion. As for the introduction, it was an introduction to the study, and lighting to work in it.The first topic, entitled: Women in the context of the movement of ancient Arabic poetry. It was devoted to talk about what women in ancient Arabic poetry - in particular - had a high status. It also stopped at the indications of the recruitment of ignorant poets to the names of women, and what these names symbolize. Then I started studying the patterns and images of women in ancient Arabic poetry.The second subject is devoted to studying the image of women in the minds of the poets of the Sa`lik. I have seen that the study is limited to the most famous of the Saalikis. This is because the number of Sa'aliks in the pre-Islamic era is more than counting. , And narrated by Shara, Al-Shanfari al-Azadi, and Al-Silik ibn al-Salqa. Then I began to examine the image of women in the poetry of each of them separately, since each of them of social conditions, and psychological conditions differ from others.The conclusion, in which I mentioned the most prominent findings in this study.

Key words: stylistics, textuality, tramps, symbolism, discourse, relative

المقدمة

حظيت المرأة في شـــعر العربي عامة، والقديم منه على وجه الخصـــوص مكانة عالية، قل مثيلها وعزّ نظيرها، فالمرأة هي الأم مصـــدر العطف والرحمة، ومبعث الحكمة، وهي الزوجة التي يلتمس لديها الراحة بعد الكلال، والاســـتقرار بعد طول التنقل والترحال، وهي فتاة الحي، أو فتاة الشاعر التي تغنى بمفاتنها، واستعذب الوصال، وتشكى حرقة الفقد والحرمان، ولوعة الوجد والهجران.

ولقد خصصت هذه الدراسة للحديث عن صورة المرأة في مخيال الشعراء الصعاليك، و قسمتها إلى مبحثين، وبينت فيها أن المرأة في الشعر العربي القديم عامة، وفي شعر الشعراء الصعاليك على وجه الخصوص واحدة من ثلاثة؛ فهي امرأة حقّة، كأن تكون فتاة الشاعر أو غيرها. وهي امرأة رمزية، يذكرها الشاعر لحاجات في نفسه، وهي نمطية تقليدية متخيلة متوهمة مجتلبة، يرسمها الشاعر في مخيلته ويستدعيها ليفتتح بها قصيدته؛ فيجلب بذكرها القلوب والأسماع. وهو بذلك يضفي على قصيدته لوناً من الجمال والحياة والالتفات، وأوردت الشواهد من الشعر على كلّ ما ذكرت.

كما وقفت في الدراسة عند أسماء النساء ودلالتها اللغوية، وأبعادها النفسية، وتحدثت باقتضاب عن تعدد أسماء وصور المرأة عند الشاعر الواحد من الصعاليك، وما ترمز إليه كل واحدة منهن، وعللت ذلك بأن هذه المرأة التي طالما ذكرها ، وأمعن في ذكرها ليست غير رمز لشيء في نفسه، وقد أعرب عنه وأبانه وصرح به ومثلت على كل ذلك بشواهد من شعرهم.

ثم ختمت البحث بخلاصـــة، ذكرتُ فيها أبرز ما توصـــلت إليه من نتائج في هذه الدراســـة، فإن وفيت فالفضـــل لله وحده، وإن قصّـــرت فهو طبيعة الإنسان وعليه الاعتذار. والله أسأل التوفيق والسداد، وهو حسبي وإليه مناب.

المبحث الأول: المرأة في سياق حركة الشعر العربي القديم

احتلت المرأة في شعر العربي عامة ولا سيما القديم منه مكانة رفيعة. ولقد وقف بعض الشعراء شعره على المرأة؛ ولا ريب فإن المرأة هي السكينة والراحة يجدها الرجل بعد التعب والكلال، وهي السكن والطمأنينة يبتغيها بعد طول التنقل والترحال. المرأة لدى العربي هي كرامته التي هي عنده أعز ما يملك، وأكرم ما يصـــون. ومخطئ من يعتقد بأن المرأة لم تكن موضـــع العناية ومقام التوقير عند العرب، ومخطئ أيضـــا من يظن أن العرب كانوا يئدون البنات. وإن الدارس المتتبع والباحث المتعمق، يتبين له بأن الوأد لم يكن منتشـــرا بين العرب، وإنما كان في بعض القبائل التي لا تكاد تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة.

وإن القارئ المتمعن في الشـــعر العربي القديم على وجه الخصـــوص يتبين له أن المرأة في هذا الشـــعر واحدة من ثلاثة: فهي امرأة حقيقية، وهي إحدى من ذكرت آنفاً، ولقد بلغت من نفس الشاعر مكانة لا تعدلها مكانة ولا تدانيها منزلة؛ وأدلّ على هذا من قول عمرو بن الكلثوم:

عَـــلَـــى آثَـــارِنـــا بِـــيـــضٌ حِسَـــــانٌ ... نُـــحَـــاذِرُ أَنْ تُـــقَسَّـــمَ أَوْ تَـــهُـــونَ [1]

أَخَـــذْنَ عَـــلَـــى بُـــعُـــولَـــتِـــهِـــنَّ عـــهـــدًا ... إِذَا لَاقَـــوا كَـــتَـــائِـــبَ مُـــعْـــلِـــمِـــيـــنَـــا

يـــقُـــتْـــلْـــنَ جِـــيَـــــادَنَـــا وَيَـــقُـــلْـــنَ لَسْـــتُـــمْ ... عُـــوْلَـــتَـــنَـــــا إِذَا لَـــــمْ تَـــمْـــنَـــعُـــــوْنَـــــا

ونحو عبلة التي كانت –فيما أرى- السبب الذي ربط عنترة بقبيلته، وهان عليه في سبيلها تنكر العشير، ويقيني أن لولاها لكان عنترة احد الصعاليك؛ فلقد تجمعت عليه الظروف والأحوال التي يكفي الواحد منها أن يدفع فارسا صنديدا كعنترة إلى أن يحترف الصعلكة، ويجعل من بني عبس مضرب سيفه، ومطعن رمحه، وغرض قوسه؛ فهو فارس، بل هو فارس العرب، وهو ابن امة أبى أبوه أن يلحقه بنسبه لسواد لونه. وهذا العامل النفسي كان أحد أقوى دوافع الصعلكة، والباعث عليه. وكيف لا وهو القائل:

ســـكـــتُ فَـــغَـــرَّ أَعْـــدَائِـــي السُّـــكـــوتُ ... وَظَـــنُّـــونـــي لأَهـــلـــي قَـــدْ نسِـــيـــتُ [2]

خـــلـــقـــتُ مـــن الـــحـــديـــدِ أشـــدَّ قـــلـــبـــاً ... وقـــد بـــلـــيَ الـــحـــديـــدُ ومـــا بـــلـــيـــتُ

وفـــي الـــحَـــرْبِ الـــعَـــوانِ وُلِـــدْتُ طِـــفْـــلا ... ومِـــنْ لـــبَـــنِ الـــمَـــعـــامِـــعِ قَـــدْ سُـــقِـــيـــتُ

ولـــي بـــيـــتٌ عـــلا فـــلـــكَ الـــثـــريَّـــا تَـــخِـــرُّ لِـــعُـــظْـــمِ هَـــيْـــبَـــتِـــهِ الـــبُـــيـــوتُ

وهي رمز من الرموز اتخذها الشاعر لحاجة في نفسه؛ فمن هذه التي يخاطبها من سابق القطا الكدري فسبقها، ومن يتطاير شرر الأمعز الصوان تحت مناسمه قادحا ومفللا إذا جرى، ومن اتخذ من الذئب أنيسه، ومن النمر سميره، ومن الضبع نديمه، واتخذ منهم جميعا أهله وعشيرته، ومن جعل من فؤاده المشيع وسيفه الإصليت، وقوسه المتينة، كفاء عن الأهل، وبديلا من القبيل؟! ولنستمع إليه يقول:

فـــإمّـــا أن تـــودِّيـــنـــا فـــنـــرعـــى أمـــانـــتـــكـــمْ وإمّـــا أنْ تـــخـــونـــي [3]

ســـأخـــلـــي لـــلـــظّـــعـــيـــنـــةِ مـــا أرادتْ ولســـتُ بـــحـــارسٍ لـــكِ كـــلَّ حـــيـــنِ

إذا مـــا جـــئـــتِ مـــا أنـــهـــاكِ عـــنـــهُ فـــلـــم أنْـــكِـــرْ عَـــلَـــيْـــكِ فَـــطَـــلِّـــقِـــيـــنـــي

فـــأنـــتِ الـــبـــعـــلُ يـــومـــئـــذٍ فـــقـــومـــي بِسَـــوْطِـــكِ لا أبـــا لَـــكِ فَـــاضْـــرِبِـــيـــنِـــي

إنه الشنفرى، وإنها القبيلة، ورمز لها بذكر امرأة هو تعبير عن جوعه الاجتماعي. ومن فاطمة هذه التي يخاطبها المثقب العبدي بقوله:

أفـــاطـــمُ قـــبـــلَ بـــيـــنـــكِ مـــتِّـــعـــيـــنـــى ومـــنـــعـــكِ مـــا ســـألـــتـــكِ أنْ تـــبـــيـــنـــى [4]

فَـــلا تَـــعِـــدي مَـــواعِـــدَ كـــاذِبـــاتٍ تـــمـــر بـــهـــا ريـــاحُ الصـــيـــفِ دونـــي

فـــإنّـــى لـــوْ تـــخـــالـــفـــنـــي شـــمـــالـــي خـــلافـــكِ مـــا وصـــلـــتُ بـــهـــا يـــمـــيـــنـــي

إذاً لَـــقَـــطَـــعـــتُـــهـــا ولـــقُـــلـــتُ: بِـــيـــنـــي كـــذلـــكَ أجـــتـــوى مـــنْ يـــجـــتـــويـــنـــي

أيعقل أن تكون هذه التي يخاطبها المثقب امرأة حقيقية؟ يقيني أن لا، وأن فاطمة هذه هي الملك عمرو بن هند الذي صرح المثقب بذكره في ختام القصيدة. وهي امرأة نمطية تقليدية تخيلها الشاعر مراعاة للعرف وجرياً على العادة، فكأنما اتفق الشعراء على أن القصيدة لا بدّ أن تبدأ بالنسيب، وذكر فتاة حقيقية كانت أو متخيلة متوهمة. ولقد غدا هذا الأمر في عرف كل منهم حتماً أو كالحتم اللزام الذي لا يجوز الخروج عليه والخلو منه، وهو ما جعل أبو الطيب المتنبي يبدأ إحدى قصائده متعجباً مستنكراً؛ إذ قال:

إذا كـــان مـــدح فـــالـــنســـيـــب الـــمـــقـــدّم أكـــلّ فصـــيـــح قـــال شـــعـــراً مـــتـــيـــمُ [5]

وقال المعري أيضاً:

فـــاهـــجـــر صـــديـــقـــك إن خـــفـــت الـــفســـاد بـــه إن الـــهـــجـــاء لـــمـــبـــدوء بـــتشـــبـــيـــبِ [6]

كما يؤيد هذا ما ذكره الشاعر العباسي أشجع السلمي من أنه وفد إلى الرشيد في يوم جمعه، وكان الشعراء ينشدون أشعارهم على الأسنان، وكان هو أحدث الشعراء سناً، فحين جاء دوره للإنشاد، كانت الصلاة قد قرب وقتها، فخشي إن هو أنشد ما في قصيدته من نسيب أن يحين وقت الصلاة، فلا يستمع إليه الرشيد، فترك الغزل وبدأ بالمديح، والرشيد يضحك، حتى إذا فرغ من الإنشاد نظر إليه الرشيد باسماً وقال له: تركتَ النسيب خشاة أن تفوتك الأعطية، عُد إلى قصيدتك، واسمعني ما قلته فيها من النسيب [7].

ولقد ذهب العلماء في تعليلهم بدء الشعراء قصائدهم بالنسيب مذاهب متباينة؛ فذهب ابن قتيبة إلى أن الشاعر قد يبدأ القصيدة بالنسيب، " يتشكى فيه شدة الشوق، وألم الوجد والفراق، وفرط الصبابة؛ ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء... ". [8]

فهو يرى أن الغزل وسيلة لأغراض يلتمسها الشاعر عند السامع. وقد ذهب ابن رشيق إلى أن النسيب مفتاح القصيدة، فإذا بدأها به انفتح له أبواب الشعر[9].

كما يلاحظ المطلع على الشعر القديم أن أسماء النساء قد تعددت عند الشاعر الواحد، وأنه كان يسمي تارة، ويكني أخرى، لحاجة لدية وغرض في نفسه، وعلة اقتضاها مقام القصيدة. وقد تبيّن للباحث أن هناك رابطاً وثيقاً بين نفسية الشاعر واسم الفتاة؛ فعلى الرغم من امتداد الجزيرة العربية، وتباعد أرجائها، وتباينها بين المفاوز الملتهبة التي تغلي للفح هجيرها دماغ الضب، وارتفاع جبالها التي ينعقد لشدة زمهريرها ذنب الكلب. رغم هذا وذاك فإنني ألمس بين الشعراء اتفاقاً أو شبه اتفاق بين نفسياتهم حين يتخيرون للفتاة هذا الاسم أو ذاك؛ فإذا كنّ الشاعر فتاته بأم كذا، فإنه ملتمس للحكمة أو داع إليها، وإن كانت بنت كذا، فإنه رمز للعطف والرحمة والإشفاق حيناً، وللتبويخ والتحقير حيناً آخر. وإن كانت (أسماء) فهناك وعد وإخلاف، وتطلع إلى الوفاء وتلهف عليه. وأما (سعاد) فإنها رمز للحديث عن السعادة أو التطلع إليها، أو التوق والتلهف عليها. وليس مقام الدراسة هنا بمقام استقصاء الأسماء وما ترمز إليه كلّ منهما، ولكنّ الباحث رأى في الإشارة إلى ذلك تمهيداً لدراسة تعدد أسماء النساء عند الشاعر الواحد من الصعاليك.

ولما كان الصعاليك في العصر الجاهلي أكثر من أن يحصو، فلقد كانت قبائل بعينها؛ نحو قبيلة هذيل كلها أو جلها من الصعاليك. لما كان الأمر كذلك، وكان مثل هذه الدراسة لا تتسع إلى الاستقصاء، فقد رأى الباحث أن يقصر على أربعة، هم أشهر من عرف من الصعاليك؛ وهم: عروة بن الورد، وتأبط شرا، والشنفرى الأزدي، والسليك بن السُلكة. وذلك من خلال الوقوف على دواوينهم، والاطلاع على أخبار هؤلاء الشعراء الأربعة وأشعارهم في كتب الأدب والتراجم، والطبقات ولا سيما الأغاني، والشعر والشعراء. وإذ قد تبين لي اختلاف بين حياة كل منهم والآخرين، وبخاصة عروة بن الورد الذي ظل سيدا في قومه، ولم تخرجه قبيلته من بين ظهرانيها، كما كان شأن سواه من الصعاليك.

المبحث الثاني: المرأة في مخيال الشعراء الصعاليك

الصعلوك لغة هو: "الفقير الذي لا مال له ولا اعتماد". [10]، والصعاليك: مجموعة من الفتية الذين أرغمتهم ظروف نفسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو جغرافية على أن يعيشوا حياة خاصة بهم. ولقد ذكرت فيما تقدّم ما كان للمرأة من مكانة في الشعر العربي عموما والقديم منه على وجه الخصوص. ولم يكن الشاعر من الصعاليك بدعا من الشعراء؛ فهو واحد من الناس له ما لديهم من كبد حرى، وفؤاد خافق وقلب عاشق، غير أن ظروفه وأحواله ونفسيته أرغمته على أن يستبدل بحب النساء حب ما ألف من الصحراء، وأعلامها وحيوانها، فلقد تغنى بها عاشقاً أو مكابرا. ولقد نظر الشاعر من الصعاليك إلى غيره من الشعراء فوجدهم:

كل يغني على ليلاه متخذا ليلى من الناس أو ليلى من الخشب

وهو شاعر مثلهم، فلم لا تكون له ليلى، كما كان لغيره ليلى؟ فلتكن وإن كانت ليلى من الخشب. ولبيان صورة المرأة في شعر الصعاليك، فإن الباحث سيدرس شعر كل واحد من الشعراء الصعاليك على حدة؛ وذلك لأن لكل واحد منهم ظروفاً اجتماعية وأحوالاً نفسية تختلف من الآخرين، ولنبدأ بعروة الصعاليك.

أ. المرأة في شعر عروة بن الورد

تطالعنا فيما وصل إلينا من شعر عروة بن الورد أسماء ست من النساء؛ وهن: أسماء، وليلى، وتماضر، وأم مالك، وأم سرياح، وأم وهب التي يكنيها بأم حسان تارة، وبنت منذر تارة أخرى. ويتبين للقارئ في ديوان عروة أن اسمها سلمى، وهو يذكرها بلفظ التصغير أحيانا. وقد ذكرت المصادر "أنها امرأة من بني كنانة أصابها عروة فأعتقها، واتخذها زوجة، فمكثت عنده بضع عشرة سنة، وولدت له أولادا، ثم استنقذها أهلها بحيلة دبروها لعروة". [11]

فأما أسماء وليلى فهما امرأتان، فأما أسماء فإنها امرأة من بني عبس –قوم الشاعر- سباها بنو عامر، ولم تلبث عندهم غير يوم حتى استنقذها قومها. وأما ليلى فإنها امرأة عامرية سباها عروة، ولبثت عنده دهرا. وبلغه نبأ فخر عامر بن الطفيل سيد بني عامر بسبي أسماء،

فرد عليه بأن أسماء إن كانت قد سبيت، فإنها لم تلبث في سبيها إلا يوما، وعيره بسبي ليلى، التي استمتع بشبابها وحسنها حينا من الدهر، يقول [12]:

إن تـأخُـذوا أســمـاء، مـوقـفَ سـاعـةٍ فـمـأخـذُ لـيـلـى ، وهـي عـذراءُ، أعـجـبُ

لـبسـنـا زمـانـاً حسـنـهـا وشـبـابـهـا ورُدّتْ إلـى شـعـواء، والـرأسُ أشـيـبُ

كـمـأخـذنـا حسـنـاء كـرهـاً ودمـعـهـا غـداةَ الـلّـوى ، مـغصـوبـةً ، يـتصَـبّـبُ

وأما أم مالك، وتماضر فإنهما قد تكونان بعض نسائه. فأما أم مالك فإنه يذكرها في أحد بيتين، قالهما مفتخرا بفرط سخائه وكرم أخلاقه [13]:

سَـلـي الـطـارقَ الـمُـعـتَـرَّ يـا أمَّ مـالِـكٍ إذا مـا أتـانـي بَـيـنَ قَـدري وَمَـجـزري

أَيُسـفِـرُ وَجـهـي إنَّـهُ أَوَّلُ الـقِـرى وَأَبـذُلُ مَـعـروفـي لَـهُ دونَ مُـنـكَـري

وأما تماضر فإنها تخاطبه مقرعة إياه على قعوده عن الكسب، وقد نفد ماله، وجفاه أقاربه، مشبهة إياه بالنطيح، داعية إياه إلى المخاطرة بنفسه لاكتساب المال، مبينة ما بذي المال من المهابة والإجلال، وما بالفقير من مذلة وافتضاح[14]:

قـالـت تـمـاضـر إذ رأت مـا لـي خـوى وجـفـا الأقـاربُ، فـالـفـؤادُ قـريـحُ

مـا لـي رأيـتُـكَ فـي الـنّـديّ مـنـكَّـسـاً وَصِـبـاً، كـأنّـكَ فـي الـنّـديّ نَـطـيـحُ؟

خـاطـر بـنـفـسـك كـي تصـيـب غـنـيـمـة إنّ الـقُـعـودَ، مـعَ الـعِـيـالِ، قـبـيـح

الـمـال فـيـه مـهـابـة وتـجـلـة والـفَـقْـرُ فِـيـهِ مـذلّـةٌ وفُضُـوح

وأما أم سرياح فإنه يذكرها في بيت واحد من إحدى قصائده، يقول[15]:

أرى أم سـريـاح غـدت فـي ظـعـائـن تـأمـل مـن شـام الـعـراق تـطـوّف

وأما أم وهب التي ذكرت من شأنها آنفا، فإنه يذكرها باسمها وكنيتها الآخرين في غير موضع من ديوانه. وكنت قد ذكرت في المقدمة أن من كنيت بأم كذا، فإنه رمز للحكمة والعقل، أو دعوة للتدبر والتعقل. وهو في إحدى قصائده يذكرها بالكنية أولا، في موقف كانت قد لامته فيه على فرط سخائه؛ إذ لم يكن عنده غير ناقة مسنة، وكان عياله في أحوج ما يكونون إليها، ويسمع بكاء صبية لجار له جياع، فيبعث إليهم بالناقة، مؤثرا إياهم على عياله؛ وكان أهل بيته جياعا، فهو يدعوها إلى التعقل والتدبير، وهو يريدها ألا تعود إلى الملام مرة أخرى. وهو في خطابه لها يرسم لها صورة مضحكة، إذ يشبهها بناقة، فكأنه يريد أن يقول لها: إنك في لومك لي على السخاء والإيثار أشبه ما تكونين بناقة لا عقل لها، يقول[16]:

أفـي نـاب مـنـحـنـاهـا فـقـيـراً لـه بـطـنـابـنـا طـنـب مصـيـتُ

تَـبـيـتُ، عـلـى الـمـرافـقِ، أمُّ وهـبٍ وقـد نـام الـعـيـون لـهـا كـتـيـت

فـإنّ حَـمِـيـتَـنـا، أبـداً، حـرامٌ ولـيـس لـجـار مـنـزلـنـا حـمـيـت

ثم يعود إلى التصريح باسمها، مؤكدا لها أنه والبخل نقيضان لا يلتقيان ولا يتفقان [17]:

وقد علمت سليمى أن رأيي ورأي البخل مختلف شتيت

وأني لا يريني البخل رأي سواءٌ إن عطِشتُ، وإن رويت

وأكفي ، ما علمتُ، بفضل علمٍ وأسال ذا البيان إذا عميت

وإذا كانت تماضر من قرعته على قعوده عن الكسب، ودعته إلى المخاطرة، فإن سلمى التي هي أم وهب، وأم حسان، وبنت منذر نقيض ذلك؛ فهي الحريصة عليه، الداعية إياه إلى عدم المخاطرة بنفسه. وهو يرد عليها مطمئنا، الواثق بشجاعته، الحازم في أمره، العازم على ركوب الصعاب من الأمور، وجوب الآفاق وطي الإسفار، القاصد منها وغير القاصد، طلبا للرزق، وسعيا إلى اكتساب الغنائم والمغانم، يقول[18]:

أقِلِّي عَلَيَّ اللَّوْمَ يا ابْنَةَ مُنْذِرِ ونامِي فإنْ لم تَنْتَهي النَّومَ فاسْهَرِي

ذَريني ونَفسي أمَّ حَسَّانَ، إنني بها قبل أن لا أملك البيع مشتري

ذَريني أطَوِّفْ فِي البلادِ لعلّنِي أخَلِّيكِ أو أغْنِيكِ عن سُوءِ مَحْضَرِ

تقول لك الويلات هل أنت تارك ضَبُوءاً بِرَجْلٍ تارةً وبِمنسرِ

فَجُوعٍ بها لِلصَّالِحِينَ مَزلّةٍ مخوف رداها أن تصيبك فاحذر

ويقول[19]:

لعمري وان عشرت من خشية الردى نهاق الحمير إنني لجزوع

فلا والت تلك النفوس ولا أتت على روضة الأجداد، وهي جميع

فكيف وقد ذكيت واشتد جانبي سُليمى وعندي سامع ومطيع

لسان وسيف صارم وحفيظة ورَأيٌ لآراءِ الرّجال صَرُوع

تخوفني ريب المنون وقد مضى لنا سلَفٌ: قيسٌ، معاً، وربيعُ

ويقول[20]:

أرى أم حسان الغداة تلومني تخوفني الأعداء والنفس أخوف

تقول سليمى: لو أقمت لسرنا ولم تدر أني للمُقامِ أطوّفُ

لعلّ الذي خوّفتِنا من أمامِنا يصادفُه، في أهلِهِ، المتخلِّفُ

ولا ريب في أن سلمى هذه التي صرح باسمها آنفا هي نفسها من يخاطبها بقوله: [21]

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير

وقوله[22]:

تقول: ألا أقصر من الغزو واشتكي لها القول طرف أحور العين دامع

وقوله[23]:

دعيني أطوّف في البلاد لعلني أفيد غنى فيه لذي الحق محمل

وكنت قد ذكرت آنفا أن سلمى هذه امرأة من مزينة أصابها عروة، فاعتقها وتزوجها، وولدت له بعد أن أقامت عنده بضع عشرة سنة، ثم استنقذها أهلها بحيلة لا مجال لتفصيل القول فيها. وفي ديوانه ثلاث قصائد رائية يذوب فيها الشاعر حنيناً إليها، وإلى ماضي عهدها، ويفيض أسى وأسفاً على فراقها، وشوقا إلى لقائها، ووجداً وهياما بها، وبها يستدل على أن عروة كان صادق المحبة والوفاء لها، وأنها قد ملكت عليه جنبات نفسه، يقول [24] :

أرقت وصحبتي بمضيق عمق لبرق في تهامة مستطير

سقى سلمى، وأين ديار سلمى إذا حلّتْ مُجاورةَ السرير

إذا حلّتْ بأرضِ بني عليّ وأهلي بين زامرة وكير

ذكرت منازلا من أم وهب محل الحي أسفل ذي النقير

وقالوا: ما تشاء؟ فقلت: ألهو إلى الإصباح آثر ذي أثير

بآنسة الحديث رضاب فيها بُعيد النوم، كالعنب العصير

فهو في هذه القصيدة يتخيل برقاً يلمع من تلقاء بلادها، وهو على عادة الشعراء الأقدمين يدعو لديارها بالسقيا، ونراه في وصف محاسنها يقصر حديثه على تلهفه إلى لثم رضابها الذي يشبهه بالعنب والعصير، وهو يستطيب هذه اللذاذة بعيد النوم، ثم يختم قصيدته ساخطاً على من غدروا به من قومها، وكانوا السبب في فراقها.

ويقول[25]:

تحن إلى سلمى بحر بلادها وأنت عليها بالملا كنت أقدرا

وكيف تُرَجّيها، وقد حِيلَ دونها وقد جاورت حيّاً بتَيمن مُنكرا

وما أنس من الأشياء لا أنس قولها لجارتها ما إن يعيش باحورا

لـعـلّـكِ، يـومـاً، أن تُسِـرّي نَـدامَـةً عـلـي بـمـا جشـمـتـنـي يـوم غضـورا

وهو يبدأ قصيدته الثانية بذكر ما يعتمل في نفسه، ويقوم في وجدانه من الحنين إلى سلمى، والأسى على فراقها، واليأس من اجتماع شمله بها مرة أخرى، وكيف لا، وبينه وبينها مهامه وقفار وأهل لها مانعون، وهو يذكر أنها قالت له ذات يوم إنك لن تستطيع العيش دوني. ويختم قصيدته مذكراً إياها بما يتحلى به من كريم الصفات، وحميد الخصائل لعلها تعود إليه.

ويقول [26]:

عـفـت بـعـدنـا أم حسـان غضـور وفـي الـرحـل مـنـهـا آيـة لا تـغـيـر

وبـالـغـر والـغـراء مـنـهـا مـنـازل وحـول الصـفـا مـن أهـلـهـا مـتـدور

لـيـالـيـنـا إذ جـيـبـهـا لـك نـاصـح وإذ رِيـحُـهـا مِسـكٌ زكـيٌّ، وعـنـبـر

ويبدو في القصيدة الثالثة مدى اساه، ومبلغ حزنه وشديد آلامه على فراق سلمى، فهي إذا رحلت فإن الديار غدت بعدها قفرا يبابا، وهو لا يرى من البشر سواها، وهو فيها يذكر بعض مآثرها؛ فقد كانت ناصحة له، حريصة عليه، وهو كذلك يصف ريحها مشبها إياه بذكي المسك والعنبر.

هذه هي المرأة في شعر عروة بن الورد. وقد تبين لنا أنها امرأة حقيقية؛ لا رمزية ولا تقليدية.

ب. المرأة في شعر تأبط شرا

تطالعنا فيما توصل إلينا من شعر تأبط شرا أسماء ثمان من النساء؛ وهن: سليمى، وهند، وسعدى، وسعاد، وليلى، وأم مالك، وأم عمرو، وأسماء التي يدعوها بابنة الحر. فأما سُليمى فإن اسمها يرد في موضعين من ديوانه، والراجح عندي أنهما امرأتان لا امرأة واحدة. وهو يذكرها في بيت واحد مصرع، يبدو أنه كان مطلع قصيدة ضاعت أبياتها، وفيه يذكر ديارها وعفاءها، يقول[27]:

عـفـا مـن سـلـيـمـى ذو عـنـان فـمـنشـد فـأجـزاع مـأثـول خـلاء فـبـدبـد

ويذكر سُليمى الأخرى في موضع آخر في قصيدة من ستة عشر بيتا، تبدو فيه سليمى إحدى فتيات قومه، وهي تتهكم عليه زاعمة أنه أمسى هرما ضعيفا، لا خير فيه للنساء. وفيها يرد عليها نافياً عنه ما رمته به، مفتخراً بأفعاله من البسالة وشدة العدو، يقول[28]:

تَـقـولُ سُـلَـيـمـى لِـجـاراتِـهـا أَرى ثـابِـتـاً يَـفَـنـاً حَـوقَـلا

لَـهـا الـوَيـلُ مـا وَجَـدَت ثـابِـتـاً أَلَـفَّ الـيَـدَيـن وَلا زُمَّـلا

وَلا رَعِـشَ الـسـاقِ عِـنـدَ الـجِـراءِ إِذا بـادَرَ الـحَـمـلَـةُ الـهَـيضَـلا

وهو يذكر هندا في مقطوعة من ثلاثة أبيات، يتحرق فيها شوقا وأسفا على هند التي رحل بها أهلها، ولكنه يختم أبياته مكابراً مخاطبا إياها قائلا لها: إنك إن توصلي نواصل، وإن تهجري نهجر. وهو معنى يكرره في غير موضع من شعره، يقول [29]:

أَلَـم تَشِـلِ الـيَـومَ الـحُـمـولُ الـبَـواكِـرُ بَـلـى فَـاِعـتَـرِف صَـبـراً فَـهَـل أَنـتَ صـابِـرُ

وَشـاقَـتـكَ هِـنـدٌ يَـومَ فـارَقَ أَهـلُـهـا بِـهـا أَسَـفـاً إِنَّ الـخُـطـوبَ تُـغـادِرُ

فَـإِن تَـصـرِمـيـنـي أَو تُـسـيـئـي لِـعِشـرَتـي فَـإِنّـي لَصَـرّامُ الـقَـرِيـنِ مُـعـاشِـرُ

ولعل عمرو بن أبي ربيعة أخذ هذا المعنى حين قال:

سلام عليها ما أحبت سلامنا فإن كرهته، فالسلام على الأخرى

وأما سعدى فإنها زوجة الشاعر، وهو يذكرها في أبيات قالها بعد غارة له على قبيلة بجيلة، وأصيب فيها بجراحات بليغة، وهو إذ يذكرها فإنما يذكر بكاءها لما أصابه، وينكر عليها بكاءها عليه، مذكرا إياها بأنه طالما عاد إليها خالياً هارباً، أو مكتسباً غانماً، يقول[30]:

تُوَلولُ سُعدى أن أَتَيتُ مُجَرَّحاً إِلَيها وَقَد مَنَّت عَلَيَّ المَقاتِلُ

وَكائِن أَتاها هارِباً قَبلَ هَذِهِ وَمِن غانِمٍ فَأَينَ مِنكِ الوَلاوِلُ

وهو يذكر سعاد في غارة أغارها على الأزد، وأصاب فيها مغنماً، وقتل فيها رجلين من ثلاثة لحقوا به لرد ما سلب. وكنت قد ذكرت آنفاً أن سعاد رمز للسعادة، أو التطلع إليها والتلهف عليها، وهو سعيد بما غنم من الإبل، وما قتل من الأعداء؛ وهو لذلك اختار لفظ سعاد. ويتحدث –أكثر الشعراء القدماء- فهي تامة الخلق، خفيظة الصوت، رقيقة اللفظ، وهي ممشوقة القوام، ريانة الشباب، بعيدة مهوى القرط، أسنانها بيضاء مفلجة، وهي منعمة عن طيفها في ثلاثة أبيات من القصيدة، وصف فيها بعض محاسنها الحسية على عادة الشعراء، يقول[31]:

أَطَيفٌ مِن سُعادَ عَناكَ مِنها مُراعاةُ النُجومِ ومَنْ يَهيمُ

وَتِلكَ لَئِن عُنيتَ بِها رَداحٌ مِنَ النِسوانِ مَنطِقُها رَخيمُ

نِيافُ القُرطِ غَرّاءُ الثَنايا وَرَيداءُ الشَبابِ وَنِعمَ خَيمُ

أما ليلى فإنه يذكرها في بيتين، تعجب له فيها كيف يناقض نفسه، فهو آنفا قد ذكر بأنه يجازي الفتاة بما تجازيه به من وصل أو هجران، ولكنه أمام ليلى هذه مستسلم بائس مسكين، يقول[32]:

مسى يُكَلِّفُني لَيلى وَلاتَ مَتى عَهدي بِلَيلى وَلَيلى لا تُحَيّيني

قد ضقت من حبها ما لا يضيعني حتى عددت من البؤس المساكين

وهو يذكر أم مالك بمطلع قصيدة له فيها أن أم مالك هذه قد لامته وإخوته من الصعاليك على القعود عن الغارات، واحتمال الفقر والفاقة، وفيها تذكره بسابق وقائعه، وهو يرد عليها بأنه يغير حينا، ويقيم حينا آخر، يقول[33]:

أَلا عَجِبَ الفِتيانُ مِن أُمِّ مالِكٍ تَقولُ لَقَد أَصبَحتَ أَشعَثَ أَغبَرا

قَليلَ الإِتاءِ وَالحَلوبَةِ بَعدَما رَأَيتُكَ بَرّاقَ المَفارِقِ أَيسَرا

فَقُلتُ لَها يَومانِ يَومُ إِقامَةٍ أَهُزُّ بِهِ غُصناً مِنَ البانِ أَخضَرا

وَيَومٌ أَهُزُّ السَيفَ في جيدِ أَغيَدٍ لَهُ نِسوَةٌ لَم تَلقَ مِنّي أَنكَرا

وأما أم عمرو فإنه يذكرها عرضا في بيت واحد من قصيدة طويلة، عدة أبياتها ستة وثلاثون بيتا، قالها وقد أراد أن يغزو هذيلا، وفيها يتحدث عن بسالته، ويذكر غاراته ومغامراته من صعود الجبال وهبوط الوهاد[34]:

إذا الـحَـرْبُ أوْلَـتْـكَ الـكَـلِـيـبَ فَـوَلِّـهَـا كَـلِـيـبَـكَ واعْـلَـمْ أنَّـهَـا سَـوْفَ تَـنْـجَـلِـي

وَمَـرْقَـبَـةٍ يَـا أمَّ عَـمْـرٍو طِـمِـرَّةٍ مَـذَبْـذَبَـةٍ فَـوْقَ الـمُـرَاقِـبِ عَـيْـطَـلِ

نـهضـتُ إلـيـهـا مـنْ جُـثُـومٍ كـأنَّـهـا عَـجُـوزٌ عـلَـيْـهَـا هِـدْمـلٌ ذاتُ خَـيْـعَـلِ

وأما أسماء التي يكنيها بابنة الحر، فإنه يذكرها في قصيدته القافية المفضلية. وهو يبدأ قصيدته بذكر كنيتها، ويذكر مرور طيفها الذي لا يبارح خياله، حتى في أشد الأوقات عسرا وأكثرها هولا، متشوقا إلى عهود وصالها التي انصرمت بعد أن فارقته مرتحلة، ثم يصرح باسمها أسماء، وهو –على عادة الشعراء الأقدمين- يقرن اسم أسماء بإخلاف الوعود، ونقض العهود، ثم يعود إلى مكابرته من جزائه الوصل بالوصل، والهجران بالهجران، يقول[35]:

يَـا عـيـدُ مَـا لَـكَ مِـنْ شَـوْقٍ وَإِيـراقِ وَمَـرِّ طَـيْـفٍ عَـلَـى الأهْـوَالِ طَـرَّاقِ

يَسـري عَـلـى الأيـنِ وَالـحَـيّـاتِ مُـحـتَـفِـيـاً نَـفسـي فِـداؤُكَ مِـن سـارٍ عَـلـى سـاقِ

طَـيـفِ ابـنَـةِ الـحُـرِّ إذ كُـنّـا نُـواصِـلُـهـا ثُـمَّ اجـتُـنِـنـتَ بُـهـا بَـعـدَ الـتِـفِـرّاقِ

تَـاللهِ آمَـنُ أنـثـى بَـعـدَمـا حَـلَـفَـت أسـمـاءُ بِـاللهِ مِـن عَـهـدٍ وَمـيـثـاقِ

مَـمـزوجَـةُ الـوُدِّ بَـيـنـا واصَـلَـت صَـرَمَـت الأوَّلُ الـلَـذ مَضـى وَالآخَـرُ الـبـاقِ

تُـعـطـيـكَ وَعـدَ أمـانـيٍّ تُـغِـرُّ بِـهِ كَـالـقَـطـرِ مَـرَّ عَـلـى ضَـجـنـانَ بَـرّاقِ

إنّـي إذَا خُـلّـةٌ ضَـنَّـتْ بِـنَـائِـلِـهـا وَأمْسَـكَـتْ بِضَـعِـيـفِ الْـوَصْـلِ أحْـذَاقِ

نَـجَـوْتُ مِـنْـهَـا نَـجَـائِـي مِـنْ بَـجِـيـلَـةَ إذْ أَلْـقَـيْـتُ لَـيْـلَـةَ خَـبْـتِ الـرَّهْـطِ أرْوَاقِـي

هذه هي المرأة في شعر تأبط شرا، وفيها يتبين لنا أن المرأة في شعره جاءت في الأنماط الثلاثة؛ المرأة الحقيقية، وهي: زوجته التي بكت لما أصيب به من جراحات، وجارته في الحي التي استنكرت قعوده على الفقر. والمرأة الرمز التي أراها في سعاد وأسماء. والمرأة التقليدية النمطية التي رأيتها في سليمى التي ذكرها في البيت المصرع.

ب. المرأة في شعر الشنفرى الأزدي

إن القارئ لما وصل إلينا من شعر الشنفرى الأزدي تطالعه أسماء اثنتين من النساء، إحداهما سعاد التي وردت فيما نسب إليه في كتاب الأغاني، دون كتاب الطرائف الأدبية، وقد ذكرها في أول أربعة أبيات يفخر فيها بغارة على قبيلة بجيلة ومعه صديقه تأبط شرا، وفيها يفخر بثأره ممن كانت بجيلة قد قتلتهم، ويذكر أسماء بعض من قتلهم من سادات بجيلة، وإنني هنا لأعود إلى التذكير بأن سعاد رمز للسعادة؛ ولا ريب فهو سعيد لأخذه بثأر أصحابه، وقتله من قتلهم من أعدائه، ولذلك هو اختار اسم سعاد تعبيرا عما تغمره من سعادة، يقول[36]:

ألا هَـل أتـى عَـنّـا سُـعـادَ وَدونَـهـا مَـهـامِـهُ بـيـدٍ تَـعـتَـلـي بـالصَـعـالِـكِ

بِـأنّـا صَـبَـحـنـا الـقَـومَ فـي حُـرَّ دارِهِـم جِـمـامَ الـمَـنـايـا بِـالسُـيـوفِ الـبَـواتِـكِ

قَـتَـلْـنـا بـعَـمـرو مِـنـهُـمُ خَـيـرَ فـارِسٍ يَـزيـدَ وَسَـعـداً وَابـنَ عَـوفٍ بِـمـالِـكِ

ظَـلَـلـنـا نُـفَـرّي بِـالسُـيـوفِ رُؤوسَـهُـم وَنَـرشُـقُـهُـم بِـالـنَـبـلِ بَـيـنَ الـدَكـادِكِ

ويلفت النظر في البيت الأول بُعد سعاد، أو قل بعد السعادة منه، فهو مع ما فيه من سعادة لأخذ بثأره، وقتله من قتل من أعدائه، لكن هناك سعادة أحب إلى قلبه، وأعز إلى نفسه هي إشباع جوعه الاجتماعي، بعودته إلى القبيلة.

أما الأخرى فأم عمرو التي يذكرها في قصيدته المفضلية، واسمها أميمة، ولقد كانت هذه القصيدة محمل إعجاب بعض علماء اللغة والأدب، وفيه نرى الشنفرى إذ يذكر أم عمرو هذه، فإنه لم يقصر وصفه لها على الجانب الحسي –على عادة الشعراء الأقدمين-، بل مزج بين الجانب الحسي والجانب المعنوي، فالشنفرى في هذا شاعر صريح عذري، أو قل عذري صريح، يقول[37]:

أَلا أُمُّ عَـمـرو أَجـمَـعَـت فَـاِسـتَـقَـلّـتِ وَمـا وَدَّعَـت جـيـرانَـهـا إذ تَـوَلّـتِ

وَقَـد سَـبَـقَـتـنـا أُمُّ عَـمـرو بِـأَمـرِهـا وَكَـانَـت بِـأَعـنـاقِ الـمَـطِـيِّ أَظَـلّـتِ

بِـعَـيـنَـيَّ مـا أمسَـت فَـبـاتَـت فَـأَصـبـحَـتَ فَـقَـضَّـت أُمـوراً فَـاِسـتَـقَـلّـت فَـوَلّـتِ

فَـوَا كَـبـدا عَـلـى أُمَـيـمَـةَ بَـعـدَمـا طَـمِـعـتُ فَـهَـبـهـا نِـعـمَـةَ الـعَـيـشِ زَلّـتِ

فَـيـا جـارَتـي وَأَنـتِ غَـيـرُ مُـلـيـمَـةٍ إذ ذُكِـرتُ وَلا بِـذاتِ تَـقَـلّـتِ

لَـقَـد أَعـجَـبَـتـنـي لا سَـقـوطـاً قِـنـاعُـهـا إذا مـا مَشَـت وَلا بِـذاتِ تَـلَـفُّـتِ

تَـبـيـتُ بُـعَـيـدَ الـنَـومِ تُـهـدي غَـبـوقَـهـا لِـجـارَتِـهـا إذا الـهَـدِيَّـةُ قَـلّـتِ

تَـحُـلُّ بِـمَـنـجـاةٍ مِـنَ الـلَـومِ بَـيـتَـهـا إذا مـا بُـيـوتٌ بِـالـمَـذَمَّـةِ حُـلّـتِ

كَـأَنَّ لَـهـا فـي الأَرضِ نِسـيـاً تَـقُـصُّـهُ عَـلـى أُمِّـهـا وَإن تُـكَـلِّـمـكَ تَـبـلَـتِ

أُمَـيـمَـةُ لا يُـخـزى نَـثـاهـا حَـلـيـلَـهـا إذا ذُكِـرِ الـنِسـوانُ عَـفَّـت وَجَـلّـتِ

إذا هُـوَ أمسـى آبَ قُـرَّةَ عَـيـنِـهِ مَـآبَ السَـعـيـدِ لَـم يَسَـل أَيـنَ ظَـلّـتِ

فَـدَقَّـت وَجَـلّـت وَاِسـبَـكَـرَّت وَأَكـمِـلَـت فَـلَـو جُـنَّ إنسـانٌ مِـنَ الـحُسـنِ جُـنَّـتِ

فأم عمرو قد فارقته مرتحلة مبتعدة دون وداع، ولذلك فإنه حزين النفس كسير القلب، إذ لا حيلة له، وهو يفديها بعينه، و يعبر عن مدى آلامه وأحزانه بنفثة من أعماق صدره، يخرجها بأسلوب الندبة (فوا كبدا)؛ فلقد كانت أميمة هذه أو قل أم عمرو نعيم عيشه، ومبعث هناه، فزايله النعيم، وبارحه الهناء بفراقها، ثم هو بعد ذلك يشرع في وصف أخلاقها الكريمة، وخصائلها الحميدة، فهي لا تأتي ما يلام عليه، وهي لا تبغض أحدا، ولا يبغضها أحد، وهي شريفة حيية لا تكثر التلفت في مشيتها، و كريمة سخية تقدم زادها لجارتها، مؤثرة إياه على نفسها، وهي شديدة الحياء فلا ترفع رأسها إذا سارت، بل إنها تسير مطمئنة الرأس، كأنما أضاعت شيئا في الأرض تبحث عنه، وهي لغفتها وطهرها،

وما اجتمعت فيه من حميد الخصائل وكريم السجايا، فإن زوجها يظل مطمئن البال أينما كانت، وهي في الغاية من حسن القوام، فهي هيفاء حيث يستحب الهيف، عجزاء حين يجمل ذلك، ولو كان الإنسان يجن لفرط حسنه ومبلغ جماله، لكانت أول من يجن.

وفي ديوانه كذلك خمسة أبيات، ذكرتُ بعضها في المقدمة دون تعليق أو تعقيب، تمهيدا للقول فيها في هذا الموضع، وهو في هذه الأبيات الخمسة يخاطب أنثى قائلا(38):

إذا أَصبَحتُ بَينَ جِبالِ قَوٍّ ... وَبيضانِ القُرى لَم تَحذَريني

فَإِمّا أَن تَوَدّينا فَنَرعى ... أَمانَتَكُم وَإِمّا أَن تَخونَي

سَأَخلِي لِلظَّعينَةِ ما أَرادَت ... وَلَستُ بِحارِسٍ لَكِ كُلَّ حينِ

إِذا ما جِئتِ ما أَنهاكِ عَنهُ ... وَلَم أُنكِر عَلَيكِ فَطَلِّقيني

فَأَنتِ البَعلُ يَومَئِذٍ فَقومي ... بِسَوطِكِ لا أَبا لَكِ فَاِضرِبيني

ذكرت في المقدمة بعض ما أثبت الشنفرى لنفسه من الصفات، وذكرها له أصحاب التراجم والطبقات وعلماء اللغة والأدب، فأي فتاة هذه التي يخاطبها ذليلا كسيرا. أي فتاة يخيرها بين الحفاظ على العهد أو نقضه؟ وأي فتاة هذه التي تجرؤ على عصيانه فيقابل عصيانها بطلب أن تطلقه. أية فتاة هذه التي يرضى مثل الشنفرى أن يكون له الزوجة، وتكون له الزوج تضربه بسوطها أنى شاءت؟؛ أكبر ظني بل أكثر اعتقادي أن هذه ليست فتاه حقيقية، وإنما هي رمز لقومه الأزد، وتعبير عما يختلج في قلبه من لواعجِ الحنين، ويعتلج في نفسه من تباريح التوق إلى العيش في أفياء قومهِ وأحضانِ قبيلته، والعيشِ في ظلالها، ومع أبنائها واحدا منهم.

هذه هي المرأة في شعر الشنفرى إنها أميمة أو أم عمرو التي أرجح أنها امرأة حقيقية، هي بعض من يعرف من النساء من أزواج جوارها وأصحابه، وأما سعاد فإنها رمز للسعادة على أخذه بثار أصحابه، وقتله ثلاثة من كبار أعدائه، كما أنها رمز لتطلعه إلى السعادة بين أبناء قومه، وذوي قرباه، أسقطه على بعد ديار سعاد.

وخلاصة القول: إن القارئ المتمعن المستقصي في شعر الشعراء الصعاليك على وجه الخصوص يتبين له أن المرأة في هذا الشعر واحدة من ثلاثة: فهي امرأة حقيقية. وهي رمز اتخذها الشاعر لحاجة في نفسه. وهي امرأة نمطية تقليدية متوهمة مزعومة مفترضة مدعاة ؛ يرسمها الشاعر في مخيلته ويستدعيها ليفتتح بها قصيدته؛ فيميل بذكرها القلوب والمشاعر، ويجلب الأفئدة، ويستدعي الأسماع، ويلامس بوصفها الأحاسيس، ويثير غرائز النفوس. وهو بذلك يضفي على قصيدته لونا من الحياة والحركة والالتفات، ويبعث شيئاً من الطرافة والجدة. كما أن في افتتاح الشاعر قصيدته بذكر المرأة، واطلاق الخيال في رسمها ووصفها يرتقي بقصيدته، ويغني مضمونها، ويثري دلالاتها، ويعينه على الولوج إلى غرضها وغاياتها؛ حيث إن نظم مطالع القصائد هي أصعب ما في القصيدة، بل هي أثقل ما يواجهه ويجابهه الشاعر في نظمه لقصيدته.

كما تبيّن لنا أن على الدارس قبل شروعه في دراسة قصيدة لشاعر ما، أن يقرأ كل شعره؛ وذلك لأن القصيدة من الديوان كالبضعة من الجسد. فالشاعر يختار من الألفاظ، و ينتقي من المعاني ما يوافق حالتَه النفسيةَ وقت ذاك، ويفصح عنها. فقد يأتي الشاعر بلفظ ما؛ كأن يأتي باسم امرأة، ثم يشرع في تعداد محاسنها، وبيان أحاسيسه ومشاعره تجاهها. وقد يكرر اسم هذه المرأة في قصائد أخرى. ولكنه إذا قرأ الديوان كله، فقد يفاجأ بأن الشاعر قد صرح بأن هذه المرأة التي ذكرها، وأمعن في ذكرها ليست غير رمز لشيء في نفسه، وقد أعرب عنه. وصرح به. وكثيرا ما تكون هذه الأسماء رموزاً؛ فإن كانت (سعاد)، فهو رمز للحديث عن السعادة، أو التطلع إليها، أو التلهف عليها. وإن كانت (أسماء)، فهناك وعد وإخلاف، وتطلع إلى الوفاء، وتوق إليه.

والحمد لله بدءاً وختاماً، وهو حسبنا واليه مناب.

الهوامش

1) التبريزي: شرح القصائد العشر، دار الكتب العلمية، ط1، ص: 285-287.
2) عنترة: ديوان عنترة، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1983.ص: 17، وينظر: العطروز، عاصم: ظواهر أسلوبية في شعر أبي العلاء المعري، دار البداية ناشرون وموزعون، ط1، 2015، ص:161
3) عبد العزيز الميمني: الطرائف الأدبية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1937م ص: 42.
4) المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق وشرح احمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط6، ص: 288.
5) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين: ديوان المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه: مصطفى السقا، وآخرون، دار المعرفة، بيروت، 1978: 350/2
6) المعري، أبو العلاء: اللزوميات، تحقيق : د. عمر الطباع ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت ، 2000م، 146/1.
7) ينظر: الأصفهاني، أبو فرج: الأغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 177/21.
8) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1981، ص:18، وينظر: فيصل، شكري: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، ط4، ص: 29.
9) ينظر: القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ط1، 2006م، 123/1
10) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د، ت، مادة: (صعلك).
11) ينظر: الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني،
12) ديوان عروة بن الورد، دار صادر، بيروت، 1964م، ص: 20-21.
13) المصدر نفسه، ص: 44.
14) المصدر نفسه، ص: 24.
15) المصدر نفسه، ص: 52.
16) المصدر نفسه، ص: 20.
17) المصدر نفسه، ص: 20
18) المصدر نفسه، ص: 35-36.
19) المصدر نفسه، ص: 46.
20) المصدر نفسه، ص: 51.
21) المصدر نفسه، ص: 45.
22) المصدر نفسه، ص: 48.
23) المصدر نفسه، ص: 62.
24) المصدر نفسه، ص: 31-33.
25) المصدر نفسه، ص: 33.
26) المصدر نفسه، ص: 39.
27) ديوان تأبط شرا وأخباره، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط1، ص: 76
28) المصدر نفسه، ص: 162
29) المصدر نفسه، ص: 97
30) المصدر نفسه، ص: 159
31) المصدر نفسه، ص: 202
32) المصدر نفسه، ص: 220
33) المصدر نفسه، ص:98 -100

34) المصدر نفسه، ص: 181

35) المفضل الضبي: المفضليات، ص: 27

36) الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، ص: 177/21.

37) الميمني، عبد العزيز : الطرائف الأدبية، ص: 44.

38) الميمني،عبد العزيز: الطرائف الأدبية، ص: 41-42.

قائمة المصادر والمراجع

1) الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني ، شرحه وكتب هوامشه عبد آ . علي مهنا ، وسمير جابر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ،1992م

2) تأبط شرا : ديوان تأبط شرا، وأخباره، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط1، د.ت.

3) التبريزي، الخطيب أبو زكريا: شرح المعلقات العشر، ضبطه وصححه: عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1985

4) عبد العزيز الميمني: الطرائف الأدبية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1937م

5) عروة بن الورد: ديوان عروة بن الورد، دار صادر، بيروت، 1964م

6) العطروز، عاصم: ظواهر أسلوبية في شعر أبي العلاء المعري، دار البداية ناشرون وموزعون، ط1، 2015

7) عنترة بن شداد: ديوان عنترة، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 1983

8) فيصل، شكري: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، ط4.

9) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1981

10) القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ط1، 2006م

11) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين: ديوان المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه: مصطفى السقا، وآخرون، دار المعرفة، بيروت، 1978

12) المعري، أبو العلاء: اللزوميات، تحقيق : د. عمر الطباع ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، بيروت ، 2000م

13) المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق وشرح احمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط6.

14) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د، ت.